جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

شعبة التاريخ

السداسي الثاني

العلوم المساعدة للتاريخ

د. علي العشاق

ملخص في علم التاريخ

التاريخ لغة :

هو تعريف بالوقت، وقد اختلف العلماء في أصل لفظ "تاريخ" فذهب البعض أنه لفظ عربي خالص، وذهب آخرون إلى أنه لفظ فارسي، والتاريخ على العموم يعني "التوقيت"، أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها.

التاريخ اصطلاحاً:

أما المعنى الاصطلاحي للتاريخ: فقد عرّفه السخاوي أن التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان والزمان.()

وفي تعريف ثان: هو تلك الأحداث التي وقعت في الماضي، والتي تقع في الحاضر، والتي يمكن أن تقع في المستقبل.

وفي تعريف آخر: هو سجل مسيرة البشرية، وهو المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية، أو هو ذلك السفر الخالد الذي يحمل بين دفتيه كل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مرت بها البشرية منذ قُدِّر للإنسان أن يترك آثاره على الأرض حتى تنتهي الدنيا وما عليها.

ولفظة التاريخ تطلق تارة على الماضي البشرية، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعني بهذا الموضوع، وفي محاولة من قسطنطين زريق للتمييز بين كلمتي "تاريخ" و"تأريخ"، فإنه يفضل أن تطلق كلمة "التأريخ" على دراسة الماضي، وكلمة "التاريخ" على الماضي نفسه ,

هل التاريخ علم؟

اختلف رجال العلم والتاريخ والأدب في وضع التاريخ وفي نسبته إلى أي فرع من فروع الإنسانية، فذهب الأستاذ ستانلي جيفونز إلى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المادية والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة وبذلك لا يمكن في دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة على نحو ما هو موجود في علم الطبيعة أو الكيمياء مثلاً.

وقد أيد هذا الاتجاه كارل بوير قائلاً أن "التاريخ الإنساني في سيره يتأثر بنمو المعرفة الإنسانية ولا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتبأ بنمو معارفنا العلمية.

وذهب آخرون إلى أن التاريخ فن، وغيرهم يرى أن التاريخ نوع من الأدب، **فهو يعنى** بالتدوين القصصي لمجرى الأحداث.

لكن المؤرخ الإنجليزي بيوري أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبردج يذهب إلى أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل، وقد نحى هذا النحو عدد كبير من المفكرين من أمثال هرقليطيس وأفلاطون وهيجل وماركس وأوجست كونت وستيورات مل، وسبنجلر، وكارل ملنهايم، وأرنولد توينبي، فاعتبروا التاريخ علم يعني بتتبع تطور المجتمع في الفترات المتعاقبة.

وقد أيد هذا الرأي تين في فرنسا وذهب إلى أن "العلل المتناهية المختلفة للأحداث يمكن أن تنتهي بنا إلى بعض المبادئ العامة التي تتحكم في كل الوقائع وتقررها."

وإذا أخذنا بقول هيكسيلي أن العلم هو كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط،

وهذا ليس شرطاً فعلم المناخ "الميتورولوجيا" لا يمكن أن نصل فيه إلى تعميمات خاصة بالجو.

ويقول سنوبس المؤرخ الفرنسي: "التاريخ علم -ما فيه ذلك ريب- فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في مجتمع خلال توالي الأزمنة في الماضي، وهو يدخل في عداد العلوم الوصفية، فإذا أخذنا بمعنى البحث أو الاستقصاء بهدف الوصول إلى الحقيقة التي من وراء الأحداث، فبهذا المعنى يكون التاريخ علماً."

فإذا سلّمنا أن التاريخ علم نقد وتحليل، وأن الأمر يصل بالمؤرخ إلى أن يضع في اعتباره العوامل النفسية التي قد تشترك وتؤثر في تشكيل حوادث التاريخ، فإننا نستطيع أن نقول أن "التاريخ علم يهتم ببحث المتبقي من أحداث الماضي أو محاولة الاستعانة بها على توضيح الحاضر وتفسيره."

وتتسع أبحاث علماء التاريخ لتصل إلى جميع ما يتعلق بالإنسان وتصرفاته من شئون سياسية واجتماعية أو اقتصادية ولذا تعددت فروع التاريخ فهناك التاريخ السياسي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي والتاريخ الحربي.

فوائد دراسة التاريخ للفرد والمجتمع:

لا شك أن دراسة التاريخ تحقق العديد من الفوائد يمكن أن نجملها فيما يلي:

قيمة التاريخ في تربية الفرد:

يرى البعض أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتشحذ الذهن، ودراسة التاريخ أصلح الدراسات للإنسان الفضائل الخاصة والعامة، فهي توسع أفق الطفل وترفع مستوى الأخلاق، وتبرز العلاقة بين النتائج والمسببات.

يقول بوركار أن التاريخ سيد الحياة، بقوله: "إن الإنسان يجب أن يلم بالأحداث الخاصة بحياته خلال الأزمنة المختلفة، فمعرفة الماضي مطلوبة لكي تكون في خدمة الحاضر والمستقبل."

ويذهب سينوكس إلى أن "التاريخ أستاذ الحياة يزودنا بنصائح عملية تفيد السلوك وبدروس تفيد الأفراد مباشرة كما تفيد الشعوب."

قيمة التاريخ لرجال السياسة:

يرى المؤرخ الإنجليزي جون سيلي أن "التاريخ مدرسة السياسة، وبدون مقدار يسير منه على أقل تقدير لا يمكن للإنسان أن يعنى عناية معقولة بالشئون السياسية ولا يمكن أن يصدر حكماً معقولاً في أي شأن من شئونه، إن التاريخ هو دراسة هامة لكل مدني، ولكن هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع."

-التاريخ مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسي، فدراسة التاريخ مفيدة جداً من حيث هي مدرسة لتعليم طريقة البحث فهي تعلم السياسي الحذر واستقلال الرأي وتهيئه لاكتساب ملكة الاستدلال بالأمثال الظاهرة على البواعث والأفكار الغامضة.

-التاريخ مستودع للأحداث السياسية السابقة: وقد عبر الفيلسوف والمؤرخ البريطاني دافيد هيوم عن ذلك بقوله: "إذا تأملنا قصر حياة الإنسان ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زماننا فلا شك في أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالاً في إدراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذي يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية وإلى أقدم الأمم الخالية، إن الرجل المطلع على التاريخ يمكن أن يقال عنه من بعض الوجوه، أنه يعيش منذ بداية العالم."

-التاريخ أساس التقدم السياسي: فالتاريخ يمد السياسي بأكثر من سابقة تمت تجربتها ويوقفه على الأصول الواقعية لمشاكل الوقت الحاضر.

علاقة علم الاجتماع بعلم التاريخ

علم التاريخ هو علم إنساني اجتماعي في نفس الوقت و يصنف بأنه أبو العلوم لأنه من أقدمها، كما يعرف بأنه " ذلك العلم الذي يتخذ من الوقائع و الأحداث التاريخية التي تظهر في مسرح الحياة البشرية موضوعا، و يهدف إلى استخلاص العبر من تجارب السابقين".

يهتم علم التاريخ بدراسة ما حدث فعلا و يؤرخ الحوادث التاريخية في مواقف معينة فهو سجل حافل لتاريخ البشر يفرض الشروط و الأسباب لحدوث المحددات التاريخية كما حدث فالمؤرخ يختار من بين تلك الحوادث الكثيرة ما يراه أكثر أهمية و يعرض كيفية ارتباط حادثة معينة بحوادث أخرى و كل ذلك يتعلق بنظرة إلى الذاتية الخاصة.

و عالم الاجتماع يهتم بدراسة تاريخ و لكن على نحو مختلفة مهنته الأساسية هي:

1. الفهم الشمولي للعمليات الاجتماعية المتكررة بالنسبة للجماعة أو المجتمع، و بمعنى تحليل القوى الاجتماعية و الثقافة و السياسية و العسكرية التي لعبت دورا بازرا في تشكيل الواقع الاجتماعي في فترة زمانية و كيف تمخض عن ذلك ظهور بعض الظواهر أو المشاكل الاجتماعية
2. الوقوف عند العلاقات العملية التي تربط الماضي و الحاضر و كيف تفسر و تؤثر في المستقبل بمعنى أن عالم الاجتماع يهتم بالماضي لكي يفسر به الحاضر و كلاهما (الماضي و الحاضر) يعمل صورة تنبؤية للمستقبل.
3. تطوير بعض الفروض العلمية و التي قد تختبر فيما بعد في دراسات أخرى.
4. الكشف عن النظريات التي تفسر التطور التاريخي مثل ما قام به ماركس في

محاولة الكشف عن ميكانيزمات الصراع الاجتماعي و ما ينتج عن ذلك من آثار اجتماعية و اقتصادية و سياسية شكلت مجرى التاريخ الإنساني و كذلك يهدف البحث التاريخي وضع نظريات اجتماعية تفسر ثقافات و أشكال الحضارات الإنسانية مثل "سوروكن" و "سيجر" و "باسونز" و غيرهم في مجادلتهم استقصاء التاريخ من أجل تفسير أشكال التغير الثقافي و الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية قديما و حديثا.

II-4. علاقة علم الاجتماع بعلم النفس:

هو ذلك العلم من العلوم الاجتماعية التي تدرس الأفراد في حالات منعزلة و يهتم بدراسة مظاهر السلوكات التي تعبر عن شخصيات الأفراد الذين يتأثرون بالأوضاع الاجتماعية المختلفة.

قد يتصور البعض أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الجماعة بينما يهتم علم النفس بدراسة الفرد، غير أن هذا الاتجاه لا يقرر الحقيقة كاملة، فالجماعة ما هي إلا عدد أقل أو أكثر من الأفراد و الجماعات لا تفكر أو تشعر أو تصرف إلا في أسلوب مجازي، إذ أن التفكير و السلوك لا يصدران إلا عن الأفراد، كما أن الإنسان الفرد ليس له وجود و الحياة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا في وسط جمعي. هذا و يظهر التداخل بين كل من علم الاجتماع و علم النفس و يظهر بوضوح في فرع علم النفس الاجتماعي الذي يقع على الحدود بين العلمين.

و الواقع أن كلا من العلمين يتبنى وجهات نظر مختلفة، فعلم النفس يعنى بدراسة حاجات الفرد و قدراته و تنظيمها في محيط شخصيته و يبحث في مصدر الدوافع الفردية في نطاق التكوين الشخصي، بينما يهتم علم الاجتماع بالطريقة التي تقوم على أساسها علاقة كل فرد بغيره من الأفراد في محيط الجماعة، و يبحث عن مصادر الدوافع البشرية في نطاق الأفكار و القيم التي

يتعلمها الفرد من مجتمعه، بينما يهتم علم النفس بالسلوك الفردي يهتم علم الاجتماع بالتفاعل الذي يحدث بين أكثر من شخص و تأثير سلوك كل شخص في سلوك الآخر. و رغم الاختلافات الواضحة بين كل من العلمين فهما يلتقيان في الاهتمام بموضوعات متقاربة كثيرة كدراسة جناح الأحداث و الانتحار مثلا بغرض الوقوف على الأسباب و الدوافع التي تؤدي إلى هذا السلوك، غير أن علماء الاجتماع حينما يدرسون هذه الأمور لا يهتمون بالديناميات النفسية إنما يقصرون اهتمامهم على دراسة الموقف الاجتماعي الذي يحدث فيه السلوك، أي أنهم يهتمون بدراسة الجماعة لأنها هي التي تؤثر في سلوك الأفراد. و قد قامت فروع كثيرة من الدراسات النفسية المعنية بدراسة الشخصية الفردية المتأثرة بظروف البيئة و ظواهر الاجتماع و منها – كما سبق أن ذكرنا ــ علم النفس الاجتماعي و كذلك.

مقدمة:

يتقاطع علم التاريخ مع سائر العلوم ضمن دوائر متوالية ، تعكس انفتاحه على مختلف الحقول الإبستيمولوجية التي يتحاور معها في سياق سؤال التكامل المعرفي، وهو السؤال الذي أصبحت تتشكل الثقافة العالمية أو ما يعرف بمجتمع المعرفة المتميز بالانفجار المعلوماتي وثورة الاتصالات . وسنفتح في هذا الملف/ المجزوءة بعض العلوم التي نرى أنها تعمل على تخصيب أرضية الدراسات التاريخية، وتتيح الأجوبة الممكنة التي صار يتطلع إليها المؤرخون من خلال الانفتاح على العلوم الأخرى المتعارف عليها باسم " العلوم المساعدة ".

مفهوم العلوم المساعدة للتاريخ:

العلوم المساعدة هي مختلف العلوم التي تنتمي إلى حقول معرفية متنوعة تكون مكمّلة ومفسّرة للأحداث والبنى التاريخية، من قبيل علوم الأنثروبولوجيا وعلم الجغرافيا والسكان ، والعلوم الشرعية والأدب واللسانيات ، وغيرها من العلوم التي تؤثث الخطاب التاريخي، ويستند إليها المؤرخ في التحليل والتفسير والمقارنة، لذلك يعتبرها بعض الباحثين جزءا لا يتجزأ من منهجية الكتابة التاريخية.

وتعرف العلوم المساعدة أيضا بعدة مصطلحات كالعلوم المجاورة ، والعلوم الموصلة، والعلوم المتقاطعة ، والعلوم الخادمة ، والعلوم البينية، وأيضا ما أسميه ب " العلوم التجسيرية".

ما الحاجة للعلوم المساعدة؟

بقدر ما تتطور العلوم وتقنيات البحث ، تزداد الحقول المعرفية تداخلا وتقاطعا ، حتى أنه أصبح من غير الممكن دراسة علم معيّن بمعزل عن كافة أصناف العلوم الأخرى، فقد أصبحت العلوم تتعايش فيما بينها في إطار ما يعرف بالتكامل المعرفي أو ما يسميه البعض باستراتيجية التحالف المعرفي. وحسبنا أن دارس الأدب لا يمكن أن يستغني عن التاريخ والسوسيولوجيا وعلم النفس وعلوم السياسة وغيرها من الحقول المعرفية. نفس القول ينسحب على دارس التاريخ الذي لا يمكن أن يعيش في جزيرة منعزلة بتخصصه الضيق، خاصة أن التاريخ هو علم الإنسان، يتفاعل بكل ما يمت بصلة للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وقد عرف في العقود الأخيرة طفرة نوعية كبيرة، وتعددت أدواته العملية ، خاصة في ظلّ الثورة المعلوماتية والانفجار المعرفي الكبير الذي يشهده عصر مجتمع المعرفة، وهو عصر يتميز بالتشبيك وتداول الأفكار، مما يجعل مجال المؤرخ في أمسّ الحاجة إلى استثمار علوم أخرى تسعى إلى

إغناء مجال دراساته وإثرائها. وقد فطن ابن خلدون الذي سبق بأفكاره العصر الذي عاش فيه، فنادى بضرورة توسيع المؤرخ مساحة تخصصه ، والاستناد إلى العلوم المجاورة بالقول أن ((التاريخ لا يستقيم إلا بالاحتكاك بالمعارف المتسعة الفضاء، والنظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء)).

ومما يزيد من حاجة المؤرخ للعلوم المساعدة، ما عرفته الكتابة التاريخية من تجاوز لسقف الاهتمام بالحدث ، إلى الاهتمام بالبنيات والمؤسسات والذهنيات، والارتحال من التاريخ الرسمي إلى تاريخ المهمّشين وتاريخ البوادي، ومن التاريخ السردي إلى التاريخ الإشكالي والتفكيك المعرفي، وتجاوز حقل الطابوهات كتاريخ الدعارة وتاريخ الإلحاد وتاريخ المعتقدات التي تخالف النظم القائمة وغيرها من المواضيع التي أنتجت بياضات هائلة في رصيد مدونات التاريخ الرسمي، فضلا عن الحاجة لتأويل النصوص التاريخية، الأمر الذي لا يتأتى إلا بالتفاعل والتلاقح بالعلوم الأخرى. ولا شك أن التاريخ الذي يحتاج إلى تجسير العلاقة بين الموتى والأحياء ، يؤدي إلى تعقد الظواهر التاريخية وتشعّبها وتشابكها في مساراتها العلائقية ، ويفرض على المؤرخ أن يكون على اطلاع بنتائج العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تفيده في دراساته التاريخية، وتطوير آلياته المنهجية، وتجديد رصيده الإبستيمولوجي من خلال الارتكاز على هذه العلوم.

من جهة أخرى، لم يعد هناك " تخصص تاريخي" محض، أو منهج منغلق، بل أصبح ثمة "تناهج" على حد تعبير عبد الله العروي، بفضل الاستخدام المكثف للعلوم الاجتماعية والبشرية الموازية للتاريخ . كما أن التشكيك في النزعة التطورية (النشوء والارتقاء) وبفكرة التقدم، قد نقل تفكير المؤرخ صوب مجالات أخرى خارج مجاله الخاص ، من أجل ابتكار أسئلة جديدة ، وجعل الكتابة التاريخية في حركة دائبة ومستمرة . وتميّز القرن الماضي بنجاح العلوم الاجتماعية الجديدة القوية ، فقد تقدم علم اللغة مع "دوسيسور"، والتحليل النفسي مع " فرويد " ، والأنتروبولوجيا مع " ماينوفسكي " ، والجغرافيا مع Vidal de Lablach ، وخاصة ذلك العلم الذي يتواجد تماما على الحدود المباشرة للتاريخ أي علم الاجتماع (السوسيولوجيا) مع المدرسة الدركهايمية، مما جعل بقاء المؤرخ منعزلا في جزيرة تخصصه أمرا غير مقبول، لكن دون مغامرة السقوط في " التاريخ المفتّت " على حد تعبير " فرانسوا دوس " .

وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أن مدرسة الحوليات الفرنسية Ecole des Annales ، ومدرسة شيكاغو الأمريكية وغيرهما من المدارس الحديثة ، قد ساهمت بشكل كبير في انجذاب التاريخ نحو العلوم الأخرى كالأنتروبولوجيا، والديموغرافيا وعلم المناخ والبيئة، وعلم السيميولوجيا، وغيرها من العلوم المفيدة

للتاريخ، وكذلك بفضل اختيار مواضيع جديدة سواء تاريخ الذهنيات والمشاعر كتاريخ الجنون وتاريخ الحب وتاريخ الخوف، التي تحتاج إلى علم النفس وعلوم البيولوجيا والعلوم الدقيقة، أو التاريخ الاقتصادي كتاريخ الأسعار، وتاريخ الأجور ومستوى المعيشة التي تحتاج إلى علوم الإحصاء والرياضيات.

مثل هذه المواضيع أفرزت نوعا جديدا من الوثائق التي أبدعتها مدرسة التاريخ الجديد: فالصورة أو الفيلم أو الرسم الكاريكاتوري أو الأغنية أو الأهازيج الفولكلورية، كل ذلك صار بالنسبة ل"جاك لوجوف" ورفاقه من رواد التاريخ الجديد وثائق أساسية تجيب عن أسئلة المواضيع التي أشرنا إليها أعلاه، وهي أسئلة لن يجيب عنها علم التاريخ إلا بانفتاحه على سائر العلوم الأخرى التي نسميها بالعلوم المساعدة .

وقبل أن نعرض لهذه العلوم ، نلاحظ أنه رغم حاجة المؤرخ إليها ، فإنها تختلف حسب طبيعة البحث ، وحسب الحقبة التاريخية التي تندرج فيها الدراسة . فالعلوم المساعدة لدراسة التاريخ القديم تختلف عن تلك التي يحتاجها المؤرخ في دراسته للتاريخ الوسيط، أو تاريخ عصر النهضة الرأسمالية الأوروبية، أو تاريخ مصر في عهد محمد علي أو تاريخ الصين الحديثة. وتختلف أيضا حاجة مؤرخ التاريخ الحاضر Histoire du présent عن حاجة نظيره المختص في الحقب السالفة الذكر، لذلك ليس من المطلوب أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة في إعداد أبحاثه ، رغم وجود مشتركات لهذه العلوم حسب تخصصات التحقيب التاريخي المتداول. فالباحث الذي يعد بحثا في تاريخ العلوم ، لا بد أن يكون ملمّا بالعلم الذي يؤرخ له . أما الذي يعالج تاريخ التعليم ، فيفترض أن يستهل الإعداد لبحثه بقراءات في مجال التربية أو التعليم حتى تكون مصطلحات العلم وأفكاره الأساسية طوع فكره وقلمه . والباحث الذي يتناول تاريخ الزراعة لا بد أن يمتلك معرفة في علم الزراعة ومصطلحاته . أما الباحث الذي يعالج بحثا في تاريخ الفنون ، فلا يشترط فيه أن يكون مؤرخا فحسب ، وإنما دارسا للفن أو فنانا ، ولا يمكن كتابة تاريخ للأدب على يد أديب ، ما لم يؤت حظا من أساليب المؤرخين في البحث . كما لا يمكن للمؤرخ أن يكتب تاريخا للأدب ما لم يؤت حظا من أساليب الأدباء في التقصي . وأفضل من يكتب في تاريخ الطب، باحث مطلع عن الأمراض وطرائق علاجها ، أو طبيب مؤرخا ، فابن أبي أصيبعة مؤلف كتاب " طبقات الأطباء " كان طبيبا أو على دراية بالطب بشكل أو بآخر ، ومؤرخو الفلسفة أو الحركة الفكرية كانوا على إلمام بالفلسفة . والنموذج الأبرز هو المؤرخ ابن خلدون الذي برع في علم الاجتماع ، حتى أن علماء الاجتماع يعتبرونه سوسيولوجيا أكثر منه مؤرخا . أما الدارسون لانتقال الحضارات والتأثيرات الحضارية فلا يستغنون عن جملة من المعارف كعلم اللغة أو الفيلولوجيا ، لمعرفة أصول الكلمات

وانتقالها من شعب إلى شعب ، وما يعتور هذا الانتقال من تغيير في الكلمة . ومن العسير على باحث أن يحكم على التأثيرات العربية في شرق أفريقيا مثلا ما لم يكن مطلعا على اللغة السواحيلية (لغة شرق القارة الإفريقية) ونصيبا من اللغة العربية.

صحيح أن المؤرخ لا يمكن أن يكون موسوعيا إلى هذه الدرجة من التخمة، وأن يكون موسوعيا ومتمكّنا من كافة هذه العلوم التي تفوق طاقة الفرد، لكن الأمر يستلزم الإحاطة بخطوطها الكبرى، والقيام بقراءات ضرورية في العلوم التي تتطلبها المواضيع التاريخية التي يعالجها.

ويمكن تصنيف العلوم المساعدة في صنفين أساسيين: أولهما العلوم الاجتماعية والإنسانية المرتبطة بنشاط الإنسان وأفعاله وسلوكاته وذهنياته التي تمكّن من فهم الأحداث والبنى التاريخية والنظم والمؤسسات وتاريخ الأفكار والمعتقدات، ونطلق عليها العلوم المساعدة المباشرة التي تستثمر في البحث التاريخي. وثانيهما العلوم التي تكسب المؤرخ مهارات وآليات تزيد من كفاءته وقدرته على الفهم والتحليل، وتوسيع حجم مداركه وقدراته على الاستنتاج كاللغات الأجنبية ، وعلوم الحاسوب وعلوم الاتصال والتقنيات الحديثة والذكية، مما يجعله قادرا على استيعاب الأحداث والمعطيات التاريخية، ويمكن أن نسميها بعلوم المهارات المساعدة .

علم الاقتصاد :

يهتم علم الاقتصاد بحلّ المشكلة التي تتمثل في قلة موارد المجتمع عن حاجات أفراده، كما أن هذا العلم يهتم بدراسة تبادل إنتاج وتوزيع السلع والخدمات والأسعار والتجارة وغيرها . وينبغي للباحث في التاريخ أن يلمّ بتاريخ الحركات الاقتصادية وفروع علم الاقتصاد، وأن يولي أهمية للأحوال الاقتصادية في العصر الذي يبحث فيه ، لأن أثر الاقتصاد وبصمته في مسيرة التاريخ واضح بيّن لا يحتاج إلى دليل . فالإنسان منذ أن خلق كان يسعى إلى كسب رزقه ، وبعد أن تمكّن من سدّ حاجياته ونجح في تحصيل فائض الإنتاج، أخذ يبحث عن كيفية تصريف هذا الفائض ، مما أدى إلى نشأة فكرة الاستغلال والتسلط وظهور الحركات الاستعمارية في التاريخ. فأثر العامل الاقتصادي كما يجمع على ذلك الباحثون حاضر في جميع الحقب التاريخية، وإن لم يكن العامل الوحيد، ومع ذلك فله قوته وحضوره . ومن أمثلة هذا الحضور القوي للعامل الاقتصادي في الأحداث التاريخية الكبرى أن الانقلاب الصناعي الذي حدث في أوروبا خلال القرن 18 أحدث ثورة وتحولا في النظم السياسية والفكرية والاقتصادية، انعكست في ظهور

عصر الأنوار، ونشأة الأنظمة الديموقراطية ، وحرية الفكر والتعبير، ونظريات "جان جاك روسو" و"جون لوك " وكتابات "كانط " وغيرهم .

كما أن صعود وسقوط الدول في المغرب ارتبط بالمجاعات وسنوات القحط وارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات . ولا شك أن فهم السيرورة التاريخية لأي بلد يتوقف على معرفة أنماط الإنتاج ، الشيء الذي يفرض معرفة ثروات البلد ، ونوعية الإنتاج الزراعي والصناعي والنشاط التجاري ، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية والأموال، ومدى تركزها في طبقة معينة ، وهو ما يسمح بمعرفة قوى الإنتاج ، وعلاقات الإنتاج ، مما يجعل علم الاقتصاد من العلوم التي لا مندوحة عنها لفهم الظاهرة .

وبالمثل، لا يمكن تفسير كثير من الهجرات الجماعية عبر التاريخ إلا بمقاربة اقتصادية . فتحركات القبائل العربية عبر رمال الجزيرة الواسعة جرت في كثير من الأحيان بدافع البحث عن الماء والكلأ . والهجرات العربية في القرن التاسع عشر عبر البحر الأحمر كانت بهدف إيجاد موارد اقتصادية، وتحقيق الاستقرار في أماكن الهجرة التي وفرت فرص العيش والاستثمار. واهتمام القوى الأوروبية هذه الأيام بمنطقتنا العربية يأتي بسبب ما تزخر به من ثروات نفطية وموقع استراتيجي . كما أن حركة الكشوفات الجغرافية التي أنجزها البرتغاليون جرت وراء ستار البحث عن بضائع الهند . ونفس القول ينسحب على اكتشاف القارة الإفريقية واستعمارها، إذ كان الهدف منها يكمن في استغلال مناجم الذهب والفضة والنحاس والثروات الغابوية بما فيها من خشب وزيوت نخيل ، تلك الزيوت التي كانت تستخدم في تشحيم الآلات. كما أن هجرة الشباب الأفارقة لأوروبا في التاريخ الراهن لا يمكن أن تقرا إلا في ضوء البحث عن إيجاد فرص للعمل.

ومن الذين اهتموا بالبحث في التفسير الاقتصادي للتاريخ مالتوس (1766 -1834) وريكاردو (1772 -1823) وماركس (1818 - 1883) . كما أن رواد مدرسة الحوليات الفرنسية أولت اهتماما خاصة للدراسات الاقتصادية، حتى أن المجلة التي كانت تصدر بلسانهم كانت تحمل اسم " الاقتصاديات والمجتمعات والحضارات ". وكان من بين مؤسسيها أحد شيوخ الدراسات الاقتصادية وهو " فرانسوا سيميان" الذي أسفر انضمامه لهيئة تحريرها عن ظهور ما بات يعرف " بالتاريخ الجديد"، وأغنى لحظة تأسيس هذه المدرسة بكتاباته التي طوّرت التاريخ الاقتصادي من قبيل دراسته: Méthode historique et science sociale » التي نشرها في مجلة " حوليات الاقتصاديات والمجتمعات والحضارات، مجلد 15 سنة 1960.

ورغم ما يطرحه تقارب التاريخ والاقتصاد أحيانا من مشكلات، فقد ساهمت جهود مدرسة التاريخ الجديد في التقريب بين العلمين، خاصة من خلال الإسهامات المتميّزة لمؤرخ التاريخ الاقتصادي الشهير "جورج دوبي" G. Duby الذي ألقى بكتاباته المتعددة أضواء كاشفة على تاريخ البادية في أوروبا خلال العصور الوسطى .

علم الإحصاء والتاريخ الكمّي:

ويرتبط علم الإحصاء بالاقتصاد، لأنه أداته الأساسية التي منها يتم بناء التاريخ الاقتصادي . والإحصاء هو العلم الذي يختص بجمع البيانات والمعطيات الرقمية حول ظاهرة معينة ، وتنظيم وتبويب هذه البيانات والحقائق بالشكل الذي يسهل عملية تحليلها وتفسيرها . وقد ازدهر الإحصاء في الدراسات التاريخية خلال العقود الأخيرة بعد ظهور الحاسوب حتى أن المؤرخ الفرنسي " إيمانويل لادوري" تنبأ منذ ثمانينيات القرن الماضي أن المؤرخ إما سيكون مبرمج حاسوب في المستقبل أو لا يكون .

وينقسم علم الإحصاء الى فرعين:

أ – الإحصاء الوصفي : ويتضمن هذا الفرع الطرق والأساليب المستخدمة في جمع البيانات والمعلومات عن ظاهرة معينة أو مجموعة من الظواهر، وكيفية تنظيم وتصنيف وتبويب هذه البيانات ، مع إمكانية تحويلها إلى جداول ورسوم بيانية ، وحساب بعض المؤشرات الإحصائية .

ب – الإحصاء الاستدلالي : وهو الذي يهتم بموضوعي التقدير واختبار الفرضيات.

ويعتبر علم الإحصاء من أهم الأدوات والآليات في البحث التاريخي من خلال استخدام قواعده وقوانينه وطرقه في جمع البيانات والمعلومات اللازمة للبحث التاريخي ، وتحليل هذه البيانات والمعلومات سعيا للوصول إلى النتائج التي يهدف لها البحث ، خاصة في المعاملات التجارية . والإحصاء الديموغرافي وغيرها من المجالات.

وللأسف فإن التاريخ الإسلامي يفتقر كثيرا إلى الإحصائيات، فالأرقام لا تأتي في المصادر إلا بكيفية عفوية وإشارات شحيحة، وهو أمر يعزى إلى عامل الزمن الذي أتى على السجلات والمستندات، كما يعزى إلى الحروب التي استعرت بين الدول الإسلامية، خاصة الدول الناشئة والدول الآيلة إلى السقوط، بحيث أن كل دولة جديدة كانت تطمس وثائق الدولة التي أتت على أنقاضها، بما في ذلك سجلاتها الإحصائية. وتخفّ هذه الإشكالية نسبيا في العصر الحديث ابتداء من عصر العثمانيين الذي

تتوافر فيه بعض الوثائق الإحصائية. أما في المغرب فقد وجدت في التاريخ المعاصر بعض الكنانيش والسجلات التي كانت تستخدمها الدولة المغربية لإحصاء محاصيل الجبايات والقبائل ، والصادرات والواردات في الموانئ.

وقد تمخض عن استخدام علوم الإحصاء ظهور ما يعرف بالتاريخ الكمي L'histoire quantitative أو التاريخ الجداولي النسقي القائم على قياس المعلومات الإحصائية ، وتحليلها من خلال الأساليب الرياضية والحسابية، مما فتح آفاقا واسعة للمؤرخين في تطبيق قواعد علمية في دراسة التاريخ تقوم على العدد والأرقام، ضمن أطر إحصائية مبرمجة على الحاسوب بهدف استخراج النتائج وتحليلها. ويعتبر " فرانسوا فوريه " و Pierre Chaunnu من رواد ومبدعي التاريخ الكمّي.

وثمة أيضا دراسات جادة لباحثين استخدموا التاريخ الكمي القائم على الإحصاء في مواضيع تهم التاريخ الإسلامي، نذكر من بينها دراسة Richard. W Bulliet التي اعتمد فيها الوسائل الكمية، واستخدم الطرق الإحصائية لدراسة تراجم رواة الحديث في مدينة نيسابور حسبما وردت في كتابي الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ) وعبد الغافر الفارسي (ت 529). وقد تمكن الباحث من التوصل إلى نتائج في غاية الأهمية حول الحياة الفكرية في هذه المدينة خلال القرون الخمسة الهجرية الاولى .

كما أن للباحث كتابا تحت عنوان "Conversion to Islam in the Medieval Period: An Essay in Quantitative History. " صدر عن مطبعة جامعة هارفارد سنة 1979م . وقد استخدم في ها الكتاب آليات التاريخ الكمي ، واستهدف من دراسته معرفة التغيّر الذي طرأ على الأسماء التي كانت غير إسلامية وتحولت إلى أسماء إسلامية في ست مناطق وهي مصر وإيران والعراق وتونس وسوريا واسبانيا ، واعتبر ذلك مؤشرا للتحول نحو الإسلام. كما نشر أيضا دراسة مهمة وموسعة تحت عنوان :

"A Quantitative Approach to Medieval Muslim Biographies

دعا فيها إلى تطبيق الوسائل الكمية في دراسة مضامين كتب التراجم الإسلامية، وقدم مشروعا عمليا لتطبيق ذلك. وقد ترجمت الدراسة إلى العربية من قبل شاكر نصيف العبيدي تحت عنوان : "طريقة كمية لدراسة معاجم التراجم الإسلامية في العصور الوسطى " ، وهي من منشورات الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة سنة 1404 هـ \ 1990م.

ونسجل أيضا الدراسة الرائدة التي أنجزها الباحث Urvoy Dominique تحت عنوان:

Le monde des Ulémas andalous du Ve/ XIe siècle au VII/ XIIe siècle. Etude sociologique. Persée 1978 .

وفيها درس تراجم علماء الأندلس ما بين القرنين 5 و7 هـ دراسة إحصائية وتصنيفية مبرمجة عبر الحاسوب، خرج من خلالها بنتائج جديدة حول الحياة الفكرية والاجتماعية والمراكز الثقافية الأندلسية وتداول الكتب في الأندلس.

ووجد التاريخ الكمي المطبّق عند المؤرخين الغربيين صدى طيبا لدى بعض المؤرخين العرب ، حيث برزت دعوات لاعتماد الوسائل الكمية والإحصائية في الدراسات التاريخية والأدبية . وفي هذا السياق، ظهرت دراسات جادة، وان كانت قد تأخرت عن التجربة الغربية ، نذكر من بينها دراسة الباحث التونسي المنجي الكعبي الذي قام بتجزئة جانب من المعلومات الواردة في كتاب " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة 1089هـ إلى رؤوس موضوعات وتحميلها على الحاسوب . وقد جاء هذا العمل ثمرة تدريب تلقاه على يد مجموعة من المؤرخين الفرنسيين في سياق عمله مع فريق تعاون دولي إبان تحضيره لرسالة الدكتوراه في باريس سنة 1970م . وقد عرض نتائج دراسته التي جعلها تحت عنوان " أداة عمل جديدة للبحث التاريخي " ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته الذي انعقد في تونس سنة 1974.

وفي نفس المنحى دعا الأستاذ عبد الله العروي إلى دراسة المؤلفات الأدبية دراسة عددية تندرج في التاريخ الكمي ، مستندا في ذلك إلى مجموعة من المسوغات العلمية يلخصها كما يلي:

1- إن كل عمل أدبي مكون من مفردات تتوزع إلى أنواع مختلفة : أعلام بشرية ومكانية ، أسماء قبائل وبطون وأفخاذ وعائلات ، مفاهيم مجردة ، حروف نحوية ، مصطلحات، الخ.

2- بالعودة إلى عدد كبير من النصوص (الطبقات، الرحلات ، دواوين الشعر الخ...) ، نستطيع أن نستنبط جداول عددية ، وهذا عمل يندرج في نطاق التوثيق الجديد الذي يستبدل الوثائق الوصفية التقليدية بأخرى قابلة للترقيم.

3-إن المصادر التقليدية تبرز أمورا وتخفي أمورا أخرى، فهي لا تظهر مثلا للقارئ العادي تغير الأسماء والكنى والألقاب، بحيث نلاحظ من حين لآخر هذه التغيرات ، ولكن يبقى ذلك على مستوى الحدس والتخمين.

4-"عندما تفرغ كل المعلومات المضمنة في مجموع المصادر المتوافرة في الحاسوب ، يبدو التطور واضحا على جميع مراحله وبكل تفاصيله، فما كان مضمرا من الروايات المتناثرة ، كان محكوما عليه أن يبقى كذلك لولا قدرة الإحصاء على إظهار اتجاه التطور.

وقد اعتبر الدكتور سيار الجميل في كتابه " المجايلة التاريخية " أن التاريخ الكمي يمثل حاجة ماسة على الصعيدين العربي والإسلامي ، فعبّر عن ذلك بالقول أن ((المنهجية الجدولية والتواريخ الكمية والتحليلات القياسية مع الرسوم البيانية ستحوّل العلوم التاريخية من حيز التخمين الضيق إلى مجال الاستدلال الواسع)). وأشار إلى أن تطبيق المنهج الكمي يتلازم مع الإدراك المعمّق للعلوم الاقتصادية والرياضية- الحسابية والإحصائية والسوسيولوجية، وكذلك القدرة في التحكم والرسم والسيطرة والجدولة وتوصيف الرموز والأعداد .

علم النميات (علم النقود) Numismastic

نقصد به العلم الذي يهتم بدراسة وتحليل مكوّنات النقود أو المسكوكات أو ما يعرف بالعملات ، ويرتبط هذا العلم بعلم الاقتصاد ارتباطا قويا ، لأن النقود أو العملة هي وحدة المعاملات في المجال الاقتصادي. وتحوي النقود والمسكوكات ثلاث مؤشرات تاريخية تشكل مفاتيح للمؤرخ وهي الشعارات التي تحملها النقود ، وصور الملوك والحكام الموجودة في إحدى واجهتها أو هما معا ، ثم سنوات ضرب العملة والمنطقة التي ضربت فيها .

فالشعارات وصور الآلهة أو الملوك والحكام التي عادة ما تحملها النقود، وكذا سنوات ضرب السكة ، تقدم معلومات هامة عن بعض الفترات التاريخية المجهولة . وقد تمكن الباحثون من خلال النقود التي تمّ العثور عليها من اكتشاف أسماء ملوك وحكام لم يرد ذكرهم في كتب التاريخ أصلا، فضلا عن مدن كانت مجهولة . ويستطيع علماء الحفريات في التاريخ القديم تحديد الزمن الذي ضربت فيه المسكوكات القديمة بكيفية تقريبية، بناء على تحديد أزمان الطبقات الأثرية .

ويمكن لعلم النميات أن يصحّح أو يؤكد بعض الأخبار التاريخية المكتوبة: فالعملات التي عثر عليها والخاصة بعهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كتبت باللغة العربية، وهو ما يؤكد ما ورد في المصادر التاريخية من أن هذا الخليفة ربط الاستقرار السياسي وتوحيد الدولة وإعطائها هويتها بتوحيد

العملة ولغتها القومية، الأمر الذي حفزه على تعريب النقود وإصلاحها، فظهرت فيها النقوش والشعارات والآيات القرآنية التي تعكس الهوية العربية، وهو ما أكدته النقود الأموية التي تم العثور عليها.

وتوضح الألقاب والكنى التي توضع على وجه وظهر العملات ميولات الحكام السياسية وإيديولوجياتهم ونزعاتهم المذهبية والنظم والمؤسسات، وهي مهمة إذا ما تمّ توفير جهد لدراسة أصولها وتطورها، وما يحيط بها من ظواهر اجتماعية وسياسية، وتلقي أضواء إضافية انطلاقا من مقاربات مختلفة.

وترتبط بعض الألقاب الطويلة أحيانا بالانتصارات التي حققها بعض الحكام، لكن الألقاب الفخمة تتصل أحيانا ببعض الخلفاء الضعاف، تعويضا عن النقص الذي كانوا يشعرون به. من ذلك على سبيل المثال الألقاب التي تلقب بها أمراء الطوائف وكتبوها في نقودهم. ويلاحظ أن بعض الوزراء والشخصيات النافذة في الدولة كتبوا أسماءهم على العملات النقدية بدل أسماء الخلفاء، وهي عقلية تعكس نفوذهم وأطماعهم في الاستيلاء على السلطة، وهذا ما حصل للوزير الفضل بن سهل الذي حاول أن يجرد الخليفة العباسي المامون من كل سلطاته ، لولا أن هذا الأخير فطن إلى أطماعه، فتغذى به قبل أن يتعشى هو به، الأمر الذي تؤكده المصادر المكتوبة ، ولا غرو فقد ورد فيها خبر نكبة الفضل بن سهل على يد الخليفة المامون.

وتدل عبارة " أمير المسلمين " الواردة في عملة المرابطين، ارتباطهم الروحي بالخلافة، وعدم تفكيرهم في الانفصال عن خلافة بغداد السنية، خاصة أن الطرفين كانا معا من المالكيين السنيين. وكان الدرهم المرابطي يحمل اسم الخليفة العباسي. لكن ابتداء من سنة 534 هـ وجدت عملات مرابطية لا تتضمن اسم الخليفة العباسي، مما يطرح التساؤل حول إمكانية وجود توتر بين المرابطين والخلافة العباسية رغم أن النصوص المكتوبة تناقض ذلك تماما وتتحدث عن رسائل ودية بين الأمير علي بن يوسف والخلفاء العباسيين، مما يفتح الباب أمام المؤرخ لمناقشة هذه القضايا التي يحصل فيها التناقض.

وتعكس النقود مشهدا آخر من المشاهد السياسية المسكوت عنها في المصادر التاريخية ، وهي النقود التي كان يسكّها الثوار وزعماء حركات المعارضة. فقد كانت أداة إعلامية نفسية بامتياز، تحرض الرعية على الحاكم ، وتزرع الثقة في نفوس الأتباع ، وتحفّزهم على الانضمام لحركتهم . وفي ذات الوقت توحي للرأي العام بنهاية شرعية الحاكم، وتنصيب الثوار أنفسهم حكاما شرعيين . وتحتفظ المتاحف

الإسلامية ببعض نقود زعماء الثورات ، مما يسمح بتسليط الضوء على جوانب غامضة من تاريخ تلك الثورات. ولا شك أن دراسة الشعارات التي كتبت في عملاتهم تبوح بكثير من الأسرار التي أهملتها وطمستها المصادر التاريخية الرسمية.

كما استخدمت العملات النقدية كوسيلة للدعاية لنظام جديد ضد نظام قائم، وهو ما قام به المرابطون الذين وظفوا عملتهم التي سكّوها باسمهم ، ونشروها في الأندلس حتى قبل معركة الزلاقة ، تمهيدا لكسب الرأي العام الأندلسي، وضمّ الأندلس لسلطة يوسف بن تاشفين.

ومن جهة أخرى فإن قياس وزن المعادن في المسكوكات من ذهب وفضة أو نحاس، تعكس قيمة الازدهار الاقتصادي للبلد الذي سكّت فيه العملة. فالدينار الذهبي المرابطي المرتكز على معدن الذهب المجلوب من السودان، والذي كان يزن حوالي 4 غرامات من الذهب، يدل دلالة واضحة على قوة ازدهار الاقتصاد المرابطي.

ويستطيع المؤرخ من خلال استخدام علم النميات استخلاص أسماء المدن التي ضربت فيها، ودور الضرب الخاصة بصناعتها وسكّها ، كذا الأحوال المعيشية وأساليب التعامل التجاري .

وبالمثل، فإن اكتشاف عملة بلد ما في بلد آخر تدل على مدى اتساع رقعة التجارة والتبادل التجاري بينهما. فوجود مسكوكات عربية في شمالي أوروبا ، يشير إلى اتساع رقعة المجال المالي العربي وقوته. كما أن انتشار عملة ذهبية مرابطية في أوروبا والقسطنطينية البيزنطية عرفت باسم al– Mitqal almoravedo أي " المثقال المرابطي " تعكس توسعا تجاريا مغربيا ، وتدل على أن حركة تجارية نشيطة بين أوروبا والمغرب كانت قائمة بفضل توافد التجار الأجانب على المغرب حتى أنه أحدث تغييرا في النظام النقدي في غرب أوروبا.

ومن نافل القول أن العملة تساعد على دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والأديان ، لأن الشعارات والرموز الموجودة على وجهها أو ظهرها، أو هما معا، تعد انعكاسا أمينا للمعتقدات السائدة في مجتمع ما، وهو أمر ينطبق كثيرا على الحضارات القديمة التي كانت تحمل شعارات دينية واعتقادية تسمح باكتشاف الديانات والمعتقدات لشعب من الشعوب. وأحيانا تساعد العملة في تصحيح بعض الأخبار التاريخية المكتوبة أو ملء الفراغات التي تتركها المصادر التاريخية، وهي على كل حال أوثق وأصحّ خبرا من المعطيات المكتوبة .

علم الجغرافيا :

يعد علم الجغرافيا من العلوم التي تساعد في تفسير كثير من قضايا التاريخ، حتى أن علما خاصا ظهر منذ أواخر القرن الماضي يعرف " بالجغرافيا التاريخية ". وقد قدّم كل من " فاوست " Faweest و" كلارك" Clarck و " ماكندر " Makender تفسيرات تعكس الصلة القوية بين علم التاريخ وعلم الجغرافيا. وبيّنت هذه الدراسات وغيرها أثر الجغرافيا في الإنسان ونشاطه وفكره وطقوسه ومعتقداته وأديانه وسلوكه. وكان ابن خلدون قد فطن منذ القرن الثامن الهجري / 14 م إلى ذلك، فكتب فصولا قيّمة عن العلاقة بين السلوك البشري والبيئة الجغرافية في كتاب " المقدمة" . كما فطن المقدسي لذلك أيضا فذكر بأن ((البقاع تؤثر في الطباع)) . فالتاريخ والحضارة ما هو إلا تفاعل بين قابليات الإنسان وقدراته وسلوكه وبين بيئته الطبيعية سواء من الناحية المناخية وما يتفرع عنها من أمطار وبرودة أو حرارة ، أو رطوبة أو غطاء نباتي، أو معطيات تضاريسية تتجسد في الجبال والسهول والمرتفعات وأصناف التربة ونوعية المعادن في باطن الأرض وغيرها.

ويستطيع المؤرخ أن يحلل العديد من القضايا التاريخية في ضوء الخصائص الجغرافية. وتتعدد الأمثلة في هذا الصدد حول تأثير العوامل الجغرافية في سيرورة التاريخ، نذكر على سبيل المثال أن البحر حال دون عبور تيمورلنك إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في موقعة أنقرة سنة 1402م ، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة التي ستصبح دولة عظمى إبان ازدهارها . وكانت سهول روسيا الفسيحة وشتاؤها القارس من ضمن العوامل التي أسفرت عن إخفاق حملة نابليون عليها سنة 1812م . ولا تخفى أهمية موقع المغرب الذي أهّله لكي يكون منطقة التقاء الحضارات وتواصلها، ومنطقة تجارة الترانزيت ، في حين بقيت بعض المجتمعات التي لا تتمتع بالشواطئ بعيدة عن المؤثرات الخارجية . أما البيئات الجبلية والصحراوية فهي بيئات طاردة للسكان ، تدفع الإنسان للرحيل ، فمثلا الطبيعة الجبلية لبلاد اليونان أدت من الناحية السياسة إلى تكوين دولة المدينة وليس الدولة المركزية، وأسفرت كذلك - بحكم طبيعتها الطردية - عن هجرة اليونانيين وتكوينهم لمستعمرات خارج بلاد اليونان.

كما أن للمناخ دورا في صياغة أخلاق الناس وسلوكاتهم ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد خصص ابن خلدون في مقدمته فصلا تحت عنوان " أثر الهواء في أخلاق البشر"، أعطى فيه نماذج

مقارنة حول اختلاف السلوكات بين زنوج إفريقيا في المناطق الحارة، وسكان التلال والجبال و ساكنة مدينة فاس.

وبالمثل، فإن المعطيات الجغرافية تساهم في دراسة الديانات والمعتقدات والعقليات، وهو ما ينطبق تماما على الحضارات القديمة كحضارتي بلاد الرافدين ووادي النيل، وغيرها من الحضارات التي اعتقدت بوجود آلهة لها علاقة بالمناخ كإله المطر وإله الخصب، وغير ذلك من المعتقدات التي ولّدتها البيئة الجغرافية. كما أن فيضانات النيل وجهت اهتمامات المصريين نحو هندسة الري، وعلّمتهم ثقافة التضامن والتعاون، وفي نفس الوقت أنتجت أنماطا ثقافية اعتقادية تروم استرضاء الآلهة، وتقديم قرابين لوادي النيل لكي يقيهم من كوارث الفيضانات .

ونستحضر في هذا السياق أيضا تفسير " روم لاندو " لبعض المعتقدات العربية قبل الإسلام تفسيرا جغرافيا طريفا ، فهو يربط بين تصور العربي للجنّ أو العفاريت ، وبين طبيعة المنطقة الصحراوية ومناخها الحار . ويقارن هذا التصور بتصور سكان أوروبا الشمالية حيث البرد والثلج ، فيقول : ((إن تاريخ العرب القديم مزيج من الحقيقة والخيال ، وذلك قدر مقدور يشمل التواريخ القديمة للشعوب جميعا . والواقع أن الخرافات الاسكندنافية القديمة تتكشف عن شبه رائع بخرافات العرب الأقدمين . ولقد ساعد المناخ على دفع هذه الخرافات في الاتجاه الذي اتخذته . فبينما أدى "المؤثر الدافئ" في احتكاكه بالثلج والجليد إلى خلق عمالقة الصقيع السويدية، خلقت الجن عند العرب من نار خالصة لا يشوبها دخان)).

ويعلّل باحث آخر أسباب تخلف الأفارقة وعجزهم عن التفكير السليم إبان الغزو الأوربي لبلادهم تعليلا جغرافيا فيقول : ((وخلال فترة الاستعمار نشر الأوروبيون آراء سيئة عن الجنس الأسود بعد أن خرّبوا ما وجدوه ببلاده من دول وحضارات . وزعم بعض كتابهم - ومنهم كثير من رجال الدين المسيحي - أن الجنس الأسود ليس من البشر، ولهذا يجوز صيده وبيعه والمتاجرة فيه . وذهب آخرون إلى أن روح الإنسان الأسود سوداء ، أو أنه لا روح له أصلا . وتمت بالفعل عمليات إبادة السود في بعض الأقاليم مثل جنوبي افريقية وزمبابوي التي سميت باسم استعماري من عتاة القائلين باستذلال الشعوب الضعيفة وهو سيسل رودس)) .

والواقع أن الجنس الأسود وجد في ظروف جغرافية صعبة ، فهو يعيش في بلاد تغطيها الغابات الكثيفة ، وتشتد فيها الحرارة ، وتكثر الوحوش والحشرات السامة المختلفة الأنواع ، فضلا عن الحيوانات الكاسرة . وفي هذه البيئة، تكثر الأمراض الفتّاكة التي تنقلها الحشرات وتسبّبها أصناف لا حصر لها من

الجراثيم التي تتكاثر وتتوطّن في هذا المجال الموبوء. ونظرا لكثرة أسباب الموت من أمراض ووحوش وهوام وحروب لا تنتهي بين القبائل، نما في القلوب خوف من الموت، ولم يجد الإنسان سلاحا لدفع هذا الموت الذي كان يحصد أرواح الناس بصورة بشعة ومستمرة إلاّ السحر والكهانة لدفع الأرواح الشّريرة . وسيطرت المخاوف والسحر والكهانة على ذهنه، فلم يستطيع الاستجابة لتحدّي استجابة إيجابية فعالة . وغلبت عليه نتيجة لذلك الطوطمية وعبادة الأوثان. ولإرضاء الأرواح الشريرة ورموزها من طواطم وأوثان، نظّم الإنسان احتفالات يدور فيها رقص، وتعزف موسيقى وتشعل نيران ، وكل هذه وسائل لمحاربة الخوف وإشعار الإنسان بشيء من الأمن المصطنع .

مثل هذه الأمور شغلت ذهن الإنسان الأسود في غاباته، فصدّت أمامه الأبواب للسير في طريق التقدم بنفس السرعة التي سارت بها الأجناس الأخرى ، ولكنه – في المستوى والظروف التي كان يعيش فيها –. أنشأ لنفسه إطارا حضاريا متواضعا فعلا، ولكنه كان وافيا بحاجاته ، وتمكنت قبائله من مقاومة الفناء . وعندما عرف هذا الإنسان الأسود حضارة أرقى مما عنده وهي حضارة الإسلام، وارتفعت من قلبه المخاوف ، تفتحت مواهبه وأنشأ دولا ذات نظام وسلوك حضاري.

ونظرا لهذا الارتباط بين البيئة الجغرافية والتاريخ، فقد ركّزت الدراسات الحديثة، وخاصة مدرسة الحوليات الفرنسية في منظورها للتاريخ على ما يعرف بالجغرافيا التاريخية التي تعطي فيها الأولوية للبيئة الجغرافية في تفسير التاريخ .

علم السكان والديموغرافيا التاريخية :

علم السكان هو أحد العلوم المساعدة للبحث التاريخي، وهو يتناول دراسة أحجام الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي والتغييرات التي تطرأ عليها زيادة ونقصانا نتيجة لمختلف العوامل ، مثل التكاثر أو الوفاة أو الهجرة أو غيرها.

ولا شك أن علم السكان بهذه الصورة يعتبر من العلوم الوثيقة الصلة بالتاريخ حيث قد يضطر المؤرخ للرجوع إلى مصادر علم السكان ونتائجه لتوضيح إحدى نقاط بحثه، أو لتفسير ظاهرة تاريخية ذات جانب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي .على سبيل المثال يقال أن أحد أسباب قيام الثورة الصناعية في إنجلترا في منتصف القرن الثامن عشر قبل فرنسا إنما يرجع ذلك لقلة سكان إنجلترا مقارنة بفرنسا، وحاجة إنجلترا لزيادة الإنتاج لمواجهة الطلب فى الأسواق الخارجية، فى حين أن زيادة السكان في فرنسا كانت تساعد على زيادة الإنتاج لمواجهة الطلب المحلي دون الحاجة إلى آلات.